المبحث الثانى

الحالة السياسية فى عصر القاضى محمد بن يحيى

- ما قبل قيام الدولة النصرية .
- الدولة النصرية نشأتها وقيامها .
- ثبوت الدولة النصرية .
- الصراع بين بنى الأحمر وسلطات أسبانيا النصرانية .
- وقعة « طريف » التى مات فيها المؤلف .
- أثر القاضى محمد بن يحيى المالقى فى أحداث عصره .

الحالة السياسية فى عصر القاضى محمد بن يحيى المالقى

عاش القاضى محمد بن يحيى بين عامىّ ٦٧٤ ـ ٧٤١ هـ بالأندلس بولاية « مالقة » فى ظل مملكة «غرناطة » تحت سيطرة الدولة النصرية التى تنسب إلى أبى عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى المعروف بابن الأحمر.

ما قبل قيام الدولة النصرية :

لما ضعف أمر الموحدين فى الأندلس واشتدّ ضغط النصارى على المسلمين ، حيث كانت حربًا صليبية شرسة ، إذ كان المتطوعون النصارى يغدون إلى الأسبان من كثير من جهات أوروبا.

ومما زاد المسلمين تفرقًا ووهناً حبهم الدنيا وكراهيتهم للموت، لذا فكّر عدد من الزعماء فى أن يجمع مدن الأندلس المتنافرة فى دولة واحدة تستطيع أن تقف فى وجه هذا الزحف النصرانى [١] .

استطاع أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجزامى أن يضم عدّة مدن كبرى فى دولته ومنها : قرطبة ومرسية، وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وغيرها [٢] . فانقادت كثير من بلاد الأندلس لابن هود، وكان

(١) التاريخ الإسلامى للأستاذ محمود شاكر ٧/ ٣٢١ .
(٢) التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ٥١٣.

ذلك فى سنة ٦٢٥ هـ، وصدرت المخاطبات عنه بأمير المسلمين المتوكل على الله، وكان عاميّاً جاهلاً مشئوماً على الأندلس، كأنما كان عقوبة لأهلها، فيه زويت محاسنها وطوى بساطها.

تحرك أول أمره إلى غربها فهجم النصارى على المدنية العظمى «ماردة» ثم أخذوها ومازالوا يأخذون المدن والمعاقل فى حياته ويهزمونه هزيمة بعد أخرى.[١] فقد سقطت الجزيرة الشرقية «ميورقة» عام ٦٢٧ هـ ، أى بعد قيام دولته بأقل من عامين وبعد عدة سنوات سقطت الجزيرة الثانية «يابسة» ، ثم ضاعت قرطبة عام ٦٣٣هـ ، وتم ذهاب عديد من المدن الأندلسية وقواعدها [٢] .

لم يطل أمر ابن هود فى غرناطة، إذ تغلّب عليه منافسه أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن الأحمر، الذى استطاع أن يكوّن قوة احتفظت ببعض المناطق فى جنوب الأندلس، وتأسيس مملكة غرناطة، ثم ورثها بعده أبناء أسرته يحكمونها حتى سقوطها بجيش الملكين الكاثوليكيين «فِرَّانْدُه» الخامس ملك «أدغون» و«إزبيل» أو «إزابيلا» ملكة «قشتالة» و «ليون».

لقد عُمِّرت مملكة غرناطة ما يزيد على قرنين ونصف، توالى على حكمها خلال ذلك ما يربو على عشرين حاكمًا «سلطانًا» ، وتمتع كثير من هؤلاء السلاطين بصفات ممتازة.

كما ظهرت بغرناطة سياسة ذات كفاءات عالية، وقدرات ممتازة أدت كثيرًا من واجبها نحو البناء. فضلاً عن أهل الملكات العلمية وأصحاب المواهب الأخرى، وعلى تعدد المستويات كلها، عاونت فى البناء والحفاظ على هذه البقعة الأندلسية.

---

(١) المُغرب فى حلى المغرب لابن سعيد المغربى تحقيق الدكتور شوقى ضيف ٢/ ٢٥١ ، ٢٥٢.
(٢) التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ٥١٤ ، ٥١٥.

الدولة النصرية نشأتها وقيامها :

جمع الله ما أساره العدو من الأندلس بعد الخضم والقطم [1] على قوم من خيار الأمة من سكان الموسطة القرطبية، ممن الجهاد شأنهم والفلح معاشهم والنجدة شهرتهم، وإلى سعد بن عبادة سيد أنصار رسول الله ﷺ نسبتهم يعرفون ببنى نصر [2].

نشأت هذه الدولة على يد ابن الأحمر أبى عبدالله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى، الذى يرجح نسبهُ إلى سعد بن عبادة أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ ، وكان رضى الله عنه «نقيبًا شهد العقبة وبدرًا» [3].

لقد ظهر أبو عبد الله بن الأحمر فى الظروف التى سبق أن ذكرناها واجتمع حوله الأعوان ليحتفظوا بما يمكن من مدن الأندلس المتبقية متمثلة فى مملكة غرناطة.

نشأ ابن الأحمر فى مدينة «أرجونة » ـ التى ولد فيها ـ وهى من حصون قرطبة فى جهة الشرق سنة ٥٩١ هـ . [4] وكان جنديًا وافر العزم والجرأة، عظيم التجلد رافضًا للمتعة والراحة، ويتحلى بصفات حسنة كثيرة [5].

اجتمع حوله الكثير، ودخلت فى طاعته عدة مدن لا سيما فى وسط الأندلس قبل سنة ٦٣٠ هـ ، ثم كانت بيعته أميرًا لمملكة غرناطة يوم

---

(١) أساره : أبقاه، من السؤر وهو بقية الشئ. والخضم : الأكل بأقصى الأضراس. والقضم: الأكل بأدنى الأضراس.

(٢) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٢١ .

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٥٩٤.

(٤) نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرى ١/ ٤٤٧.

(٥) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ٢/ ٩٤.

الجمعة ٢٦ من رمضان سنة ٦٣٥ هـ. وكانت مناطق أخرى قد دخلت تحت سلطان ابن هود شرقى الأندلس وكذلك غرناطة [١].

ولكن بوفاة ابن هود زال أكبر منافس لابن الأحمر، ودخلت غرناطة فى طاعته، ثم استُدعى إليها فدخلها فى أواخر رمضان سنة ٦٣٥هـ، وأصبحت مدينة غرناطة حاضرة المملكة، وانضمت إليها مناطق أخرى أندلسية، منها مناطق جنوبى الأندلس وشرقيها [٢].

لضد ضمت مملكة غُرناطة أيام بنى الأحمر ولاية «مالقة» وهى البلدة التى ينتمى وينسب إليها المؤلف القاضى محمد بن يحيى المالقى، كما ضمت ولاية «المرّية» فى الشرق، وولاية غرناطة فى الوسط، وفيها العاصمة غرناطة، كما ضمت إليها عدة ولايات أخرى [٣].

ثبوت الدولة النصرية:

استطاع محمد بن الأحمر أن ينشأ مملكة ويحتفظ بها مع نفرٍ من رجال الأندلس تحت شعار « لا غالب إلا الله » واستمرت مملكة غرناطة هذه مدة تبلغ قرنين ونصف كما سبق أن ذكرنا رغم صغرها وقلة عدد سكانها، محافظة على ما بقى للمسلمين من سلطان سياسى ووجود حضارى معطاء.

وهذه المدة كانت مملوءة بالصراع مع دول أسبانيا النصرانية، ورغم ذلك فكانت ثابتة ومواجهة للقوة العددية النصرانية وبامكانياتها المحدودة واجهت الامكانيات الواسعة، مما جعل ذلك مثاراً للاستغراب والتعجب، فلابد لهذا الثبات من أسباب سواء من الناحية الجغرافية أو التاريخية أو الإنسانية والحق أن الأسباب كانت فى كل هذه النواحى :

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١/ ١٤٢ ، ٢/ ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٢) نهاية الأندلس للدكتور محمد عبد الله عنان ص ٤٠.
(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١/ ١١٥ ـ ١١٩.

١ ـ فنجد من الناحية الجغرافية أن مملكة غرناطة كانت أبعد مكانًا عن الوقوع فى يد عدوُ الأندلس مع مناعة فى الموقع، وبسبب قربها من عُدوة المغرب وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمى غرناطة يقف حائلاً دون الاستعانة بإخوتهم المغاربة وبقية الشمال الإفريقى.

٢ ـ كان موقع مملكة غرناطة فى الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية، ففى جنوبها البحر، وفى شمالها العدو، وأخوة المغرب لا يتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسية، فكان بنو مرين نعم المعاون من المغرب، فاستمرت فترة تقوم بواجب المرابطة والجهاد فى الأندلس. وبقيت مملكة غرناطة قوية من الجنوب ، مادامت الدولة المرينية قوية، وعندما ضعفت عجزت الأندلس عن المقاومة.

٣ ـ من الأسباب أيضا أن المسلمين الفارين من المدن الأندلسية التى سقطت فى يد النصرانية مملكة غرناطة ملازهم، يحتمون بها ويلجئون إليها، فتجمعت فيها كثرة من الذين برعوا فى كل ميدان حربيًا كان أو مدنيًا، مما منح غرناطة انتعاشًا فى مختلف الميادين التى استمرت فى النمو مهما اختلف الاطار وهيأ الرجال تحميها من الأخطار.

٤ ـ يُعد الالتزام الإسلامى من أهم الأسباب، إذ جمع الطاقات ودفعها للوقوف مجتمعة، ورفع الهمم، وكان هو العامل فى وقوف بنى مرين خلف أخوانهم الأندلسيين [١]. فى الوقت الذى كانت فيه مملكة غرناطة تمثل جانبًا إسلاميًا قويًا يحكمها بنو الأحمر كانت دول أسبانيا النصرانية تمثل جانبًا مضادًا لها متمثلة فى مملكة «قشتالة» و«نبارة» و«ليون» و«أرغون» و«البرتغال» .

(!) التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ٥١٩ ـ ٥٢٢.

وكانت فى عهد فرغانة ـ ثلاث ممالك فى أسبانيا النصرانية : «البرتغال » و«أرغون» «وقشتالة» أقواها. وبجيوشها وملكها «فِرَّانْدُه» الثالث ومن معهم كان سقوط «قرطبة» سنة ٦٣٣ هـ واشبيلية سنة ٦٤٦هـ «وجيّان» سنة ٦٤٣ هـ ، فانتقلت عاصمة قشتالة من «طليطلة» إلى «إشبيلية» وبجيوش ملك« أرغون» جايمش الأول كان سقوط بلنسية ٦٣٦هـ.

كانت هاتان الدولتان «قشتالة وأرغون» تتعاونان فى مهاجمة الأندلس والقضاء على الدولة والأمة الإسلامية، فى حين أن البرتغال كانت تعمل على ضم الأراضى الأندلسية الواقعة جنوبها فى ولاية الغرب [١].

الصراع بين بنى الأحمر وسلطات أسبانيا النصرانية :

كانت سلطات أسبانيا النصرانية بعد قيام مملكة غرناطة أكثر عنفًا فى مصارعتها بالنسبة لمسلمى غرناطة ، وإن كانت الأحداث الداخلية فيها تشغلها لوقت ما ، لكن غرناطة لم تكن تخلو من هذا المظهر ، رغم ذلك فإن أية من دول أسبانيا النصرانية منفردة كانت أقوى من مملكة غرناطة نظرًا لامكانياتها العسكرية في العدة والعدد والمورد.

كان محمد الأحمر مؤسس مملكة غرناطة يحاول تجنب الاصطدام بأسبانيا النصرانية، وقد أوغل فى ذلك أحيانًا إلى درجة شاذة ومهينة فى سنة ٦٦٠هـ حيث قامت قوات إسبانيا النصرانية باعتدائها على مملكة غرناطة أيام محمد بن الأحمر، استطاعت قوتها ـ بمساعدة المجاهدين من الغرب ـ ردّها وهزيمتها .لكن هذه البادرة أثارت «الفونس العاشر» ملك قشتالة إلى مضاعفة الجهد فقام بهجومهات عديدة أسقط بها بعض الحصون، فتجدد طلب الغوث من عدوة المغرب ومناطق إفريقية أخرى

(١) انظر نهاية الأندلس للدكتور محمد عبد الله عنان ص ٨٧ ـ ٨٨.

حتى تونس ، ثم عقدت سنة ٦٦٥ هـ المسالمة بين غرناطة والفونس العاشر، تنازل ابن الأحمر له عن عديد من المناطق والحصون [١]. هكذا ذهبت المناطق الأندلسية فى فترة وجيزة ـ حوالى ثلث قرن ـ ساقطة بيد جيوش أسبانيا النصرانية .

وفى سنة ٦٧١ هـ عاد الفونس العاشر إلى مهاجمة الأراضى الأندلسية ، فوجّه ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب النجدة لكن النجدة لم تصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر أيام ولده محمد الثانى المعروف بالفقيه، وكان هذا السلطان أوحد الملوك جلالة وصرامة وحزمًا، قام بالأمر بعد أبيه وباشره مباشرة الوزير أيام حياته، فجرى على سنن من اصطناع أجناسه ومداراة عدوّه وإجراء صدقاته، وفى عهده طماعليه بحر من الفتنة، وتكاثر عليه الثوار، وارتجت الأندلس فثبت لزلزالها وبذل من الدهاء والاحتيال ما أظفره بخلوّ جوّه [٢]. فى عهده كان عصر القاضى محمد بن يحيى المالقى صاحب هذه الدراسة. وفى عهده وصل الجيش المرينى لنجدته، وقوامه خمسة آلاف عبر إلى الجزيرة «جزيرة طريف» فى ذى الحجة سنة ٦٧٣ هـ، ثم لحق به السلطان فى صفر من السنة التالية، جرت لهم أحداث مع جيوش «قشتالة» ، كانت معركة هائلة فى يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ عند مدينة «إسْتجّه» جنوب غرب قرطبة، وكان جيش «قشتالة» يفوق جيش المسلمين تحت إمرة القائد القشتالى الشهير «الدون نوينودى لارا» صهر ملك «قشتالة» الفونس العاشر [٣] . وكان استعداد هذا الجيش القشتالى ضخمًا فى

---

(١) نهاية الأندلس للدكتور محمد عبد الله عنان ص ٤٩ .

(٢) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٣٨ .

(٣) انظر الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطب ١/ ٥٦٥، ونفح الطيب للمقّرى ١/ ٤٤٩ ، ٤/ ٣٨٥.

العدد والعـدّة، مقبـلاً على الحرب بقوة وأمل وقيـادة مجربة مـهرة فى الحرب وخططها، وما عرفت الهزيمة قبل ذلك [1].

لكن المسلمين جاهدوا صابرين محتسبين، وباشر أمير المسلمين المرينى القتال بنفسه وابنه يوسف على المقدمة، وإن الأمير المرينى أبا يوسف نزل عن فرسه وتوضأ وأسبغ وضوءه وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمـون يؤمنون على دعائه، ولما فرغ مـن دعائه قام فاسـتوى على جواده واستعدّ للقتال وجلاده، ونادى على المسلمين فقال :

« يا معشر المسلمين، وعاصبة المجاهدين، أنتم أنصار الدين، الذّابُون عن حمـاه، والمقاتلون عـداه، وهذا يوم عظيم ومشهـد جسـيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قـد فتـحت لكم أبوابها وزينت حـورها وأترابها ، فبادروا إليـها، وجدّوا فى طلابها، وانزلوا النفـاس فى أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السـيـوف و ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ [2] فاغتنموا هذه التجارة الرابحة ، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة وشمـروا عن ساعد الجد فى جهاد أعداء الله الكفرة وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً، ومن عاش رجع إلى أهله سالمًا غانمًا مأجورًا حميدًا فـ ﴿ **اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [3].

فلما سمـعوا منه هذه المقالة تاقت أنفـسهم للشهادة، وعانـق بعضهم بعضـا للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجـيب وانصداع، وكلهم قـد طابت نفسـه بالموت وباعهـا من ربه بالجنة قـبل الفوت، وارتفـعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقـول : عباد الله، إياكم والتقصير،

(!) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لعلى بن أبى زرع الفاسى ص ١٤٨.

(٢) سورة التوبة الآية (١١١).

(٣) سورة آل عمران الآية (٢٠٠).

فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحىّ القيوم [1].

لقد حازت الجيوش الإسلامية المغربية والأندلسية نصراً حاسمًا فى هذه المعركة وتشتت شمل الجيش القشتالى وقُتل قائده، وترك القائد المرينى بالأندلس ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين فى ردّ اعتداء جند «قشتالة» ومن معهم [2].

وفى سنة ٦٧٧ هـ عبر السلطان يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الثانية. وتوغّل بجيشه فى أراضى «قشتالة» والتقى بابن الأحمر، ثم عاد السلطان يعقوب المنصور إلى المغرب، ولكن ابن الأحمر كان يتوجس من السلطان المرينى فتصرف تصرفًا شاذًا حيث تحالف مع ملك قشتالة الذى أنزل قواته فى الجزيرة الخضراء تبعًا لذلك، مما جعل السلطان المرينى المنصور يرسل ابنه الأمير أبا يعقوب فى أسطول ضخم فى أوائل عام ٦٧٨ هـ ويلتقى مع الأسطول البحرى القشتالى ويهزمه، واضطرت القوات القشتالية إلى ترك الجزيرة الخضراء [3].

وأرسل السلطان المنصور إلى ابن الأحمر فى وجوب التفاهم خشية على مصير المسلمين فى الأندلس من هذا المسلك، ثم التفاهم وعقد التحالف وصفا الجو، وبموجب هذا الوفاق أصبحت «مالقة» لبنى مرين لتكون محطًا وقاعدة للقوات المرينية التى تعبر إلى الأندلس للجهاد فيه، كما نذحت مجموعة من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها عرفت هذه المجموعة بمشيخة الغزاة [4].

---

(١) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لعلى بن أبى زرع الفاسى ص ١٤٩ ـ ١٥٠.
(٢) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لعلى بن أبى زرع الفاسى ص ١٥٩.
(٣) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٤٥.
(٤) نفح الطيب للمقرى ٤, ٣٨٥، والإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ٢/ ١٦، ٣٨، والعبر لابن خلدون ٧/ ٧٧١.

وفى سنة ٦٨١ هـ خرج « شانْجُه» على أبيه «الفونس العاشر» وهذا الفونس عُرف عنه ميله للعلم، وكانت له صلات مع علماء الأندلس، مما أثار السخط على ولده فى مملكته [١].

ولكن السلطان المنصور المرينى لم يهدأ حتى عبر إلى الأندلس لمعاونة «الفونس» ، ولكن «الفونس» هرع للقائه فرهن تاجه عند السلطان وأمده بالمال والجيش [٢]. ثم توفى «الفونس العاشر» سنة ٦٨٣ هـ وانفرد ابنه «شانجه» فى حكم «قشتالة» ، فعبر السلطان المنصور المرينى للمرة الرابعة فى سنة ٦٨٤ هـ إلى الأندلس واشتبك مع جيوش «قشتالة» فى البر والبحر، ورغب القشتاليون فى السلم فوفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء وفدٌ وعقد معه السلم . [٣]

وفى سنة ٦٨٥ هـ توفى أبو يوسف يعقوب المرينى المنصور قبل أن يعود إلى المغرب بعد حياة حافلة بالجهاد فى المغرب والأندلس، وورث حكم المرينيين ابنه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب ، وأصبح له شأن فى الجهاد فى الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمى غرناطة تحت زعامة محمد بن الأحمر الفقيه الذى كان ذا نشاط واضح فى هذا الميدان ومهتمًا به[٤].

وفى ليلة الأحد ثامن شعبان من عام أحد وسبعمائة توفى على مصلاة متوجهًا لأداء فريضته على أتم الأحوال .[٥] وخلفه ولده أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع، لأنه خُلع فى سنة ٧٠٨ هـ ليتولى

---

(١) نهاية الأندلس للدكتور محمد عبد الله عنان ص ١٠٤ .
(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١/ ٥٦٤ . والعبر لابن خلدون ٤/ ٣٩٣ .
(٣) العبر لابن خلدون ٤/ ٣٩٣ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١/ ٥٦٣ ونهاية الأندلس للدكتور محمد عبد الله عنان ص١٠٦ .
(٤) التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ٥٤١ .
(٥) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٤٥ .

الحكم أخـوة «نصر»، وفى عـهده ابتنـاء المسجـد الأعظم بالحمـراء من غرناطة وما فيه من إبداع وجمـال وظرف وتنجيد وترقيش وغزى الجيش لأول أمره مدينة «المنظر» فاستولى عليها عنوة وتملّك من اشتملت عليه، ومن جملتـهم العلجة صـاحبة المدينة من أفـراد عقائل الروم، فـقدمت الحضـرة فى جملة من السبى، وكـان هذا الفتح عظيمًـا والصيت لأجله بعيدًا .

وفى يوم عيد الفطر من عام ٧٠٨ هـ تمت الحيلة عليه وأحيط به وهو زمن مُصاب بعـينه، مقعد فى كنّه. داخلت طائفة من كـبار الدولة أخاه ففتكت بوزيره أبى عبد الله بن الحكيم ونصبت للناس أخاه المذكور نصرًا وكُبس مـنزل السلطان فأحـيط به وجُعل عليـه الحرس وتُسُـومع بالكائنة فوقع البهت، وسـال من الغوغاء البحـر، فتعلّقوا بالحـمراء يسألون عن الحادثة فشغلوا بأنهاب دور الوزير الكـائنة بالربض وبها من مال وذخيرة وكُتب وأثواب وسلاح وفرش وآنية وخرثىّ [1] ما يفوت الوصف. فكان الفجع فى إضاعته على المسلمين عظيمًا ، وانطلقت عليه الأيدى الخبيثة، وفى آخر اليـوم المذكور أُدخل على السلـطان قوم من الفقـهاء أشـهدهم بخلع نفسه، ونقل إلى القصر المنسوب إلى السيد بخارج الحضرة أقام به يسيرًا، ثم نُقل إلى مدينة «المنكّب» [2].

وتولى الحكم أخوه «نصـر» الذى فى عهده ساءت العـلاقات مع بنى مرين وجـرت أحداث داخلية فى مملكة غـرناطة، ثم أرغم «نصر» على التنازل فى سنة ٨١٣ هـ ليتـولى الحكم أبو الوليد إسماعـيل بن فرج بن إسمـاعيل بن يوسـف بن محمـد بن أحمـد، وكان هذا السلـطان وافر العزم، وطـد الأمن وأشاع الاستـقرار وأعـاد عهـد الجهـاد، وحين عاد

---

(١) الخرثىّ : متاع البيت .

(٢) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٥٠ ، ٥٤ .

القشتاليون إلى مهاجمة الأراضى الإسلامية استنجد أبو الوليد، بالسلطان المرينى الذى رفض المساعدة نتيجة لعدم استجابة أبى الوليد لمطالب معينة.

ولكن المواجهة كانت حاسمة بين الجيش السلامى والجيش القشتالى الذى حركته نزعة صليبية، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٧١٨ هـ حيث حدثت معركة قرب مدينة غرناطة فى حَرْب غير متكافئة تمامًا ، لكن المسلمين الموجودين فى الصفوف كانوا الصفوة المختارة بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء، الذى أخلص وجنده النيّة لله، مجاهدين مستشهدين، فكان نصرًا حاسمًا [١].

وفى سنة ٧٢٥ هـ أُغتيل أبو الوليد إسماعيل الغالب بالله سلطان غرناطة، فخلفه ولده أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن فرج، وكان معدودًا فى نبلاء الملوك وأبناء الملوك صرامة وعزّة وشهامة وجمالاً وخَصْلاً، وأُخذت له البيعة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب عام ٧٢٥ هـ [٢]. وفى عهده استطاع المسلمون استعادة جبل طارق بمساعدة بنى مرين سنة ٧٣٣ هـ حيث قد احتله القشتاليون أيام «فرَّانْده» الرابع منذ سنة ٧٠٩ هـ [٣]. وفى عهد أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن فرج تولى الأحكام الشرعية شيخنا الإمام العلم الأوحد خاتم الفقهاء وصدر القضاة العلماء محمد بن يحيى المالقى موضوع هذه الدراسة. وقد استمر له الحكم إلى تمام مدة هذا السلطان وصدرًا من أيام أخيه بعده [٤] إلاّ أن سلطان غرناطة أغتيل عندما توغّرت عليه صدور رؤساء

---

(١) نهاية الأندلس للدكتور محمد عبد الله عنان ص ١١٨ ، ١٧١.
(٢) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٧٧.
(٣) التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ٥٤٣.
(٤) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٨٢.

جنده المغاربة وكانت وفاته يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى الحجة عام ٧٣٣ هـ [١] .

فورثه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول بن أبى الوليد إسماعيل الذى كان من أبرع ملوك بنى الأحمر، بعيد الهمة، عالى الخلال، شاعرًا عالمًا وحاميًا للعلوم والفنون، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء منشآت كثيرة . [٢]

وقعة «طريف» التى مات فيها المؤلف :

هذه الموقعة حدثت فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف الأول بالقرب من «طريف» ولذا سميت بوقعة «طريف» تجهز على إثرها المسلمون لردّ القشتاليين ومن معهم من المرينيين بقيادة سلطانهم أبى الحسن على بن عثمان بن أبى يعقوب. والأندلسيون بقيادة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف الأول. [٣]

وقد نشبت المعركة بين الطرفين فى سابع جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ استعمل المسلمون فيها نوعًا من المدافع تقذف النيران [٤]. وقد غدا هذا النوع من السلاح مستعملاً فيما بعد [٥]، لكن المسلمين خسروا هذه المعركة، وارتكب القشتاليون المناكر فى المعسكر الإسلامى وغنموا ما فيه.

وقد حضر هذه المعركة عدد من العلماء الأكابر والأعلام، واستشهد بعضهم، من بين هؤلاء العلماء القاضى محمد بن يحيى المالقى صاحب

---

(١) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٨٤.
(٢) نهاية الأندلس للدكتور محمد عبد الله عنان ص ١٢٥.
(٣) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦ والإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ١/ ٥٤١ ونفخ الطيب للمقرى ٥/ ٨٠.
(٤) نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان ص ١٢٧.
(٥) الآثار الأندلسية لمحمد عبد الله عنان ص ٢٨٢.

هذه الدراسة، الذى فُقِدَ فى مصافها وتحت لواء جهادها ، رابط الجأش مجتمع القوى إلى أن نال الشهادة [١]. وذلك ضحى الاثنين السابع من جمادى الأولى عام سبعمائة وواحد وسبعين من الهجرة من غير عقب من الذكور [٢].

ومن هؤلاء العلماء أيضا : أبو محمد عبد الله بن سعيد السلمانى والد الوزير والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب وقد فقد يوم الوقيعة الكبرى بظاهر «طريف» [٣]. وأبو القاسم محمد بن جُزَىّ وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب «المزيفات» وكان فقيهًا حافظًا ، قائمًا على التدريس مشاركًا فى فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، وكان حسن المجلس ممتع المحاضرة ، قريب الغور صحيح الباطن، فُقِدَ وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم يوم «طريف»[٤]. وكذلك ابن مرزوق أحد أشياخ لسان الدين بن الخطيب[٥]، وصديق ابن خلدون [٦]، وهو عالم فاضل و غاص المنزل بالطلبة، منقاد للدعوة، بارع الخط أنيقه، عذب التلاوة متسع الرواية، مشارك فى فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويقول شعرًا ويقيد ويؤلف ، فلا يعدو السداد فى ذلك ، فارس منبر غير جزوع ولا هيّاب[٧].

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس للنباهى ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .
(٢) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا لأبى الحسن النّباهى ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٣) نفح الطيب للمقّرى ٥, ١٧ . .
(٤) نفح الطيب للمقّرى ٥/ ٥١٦ ، ٥٢٦، وأزهار الرياض للمقّرى ٣/ ١٨٧ .
(٥) نفح الطيب للمقّرى ٥, ٣٩٠ .
(٦) التعريف بابن خلدون ورحلته لابن خلدون ص ٤٩ .
(٧) نفح الطيب للمقّرى ٥/ ٣٩١.

أثر القاضى محمد بن يحيى المالقى فى أحداث عصره :

رغم هذه الأحداث والاضرابات السياسية فى عهد القاضى محمد بن يحيى المالقى إلا أنه لم يكن سلبيًا تجاهها، بل كان إيجابيًا متفاعلاً معها متأثرًا بها ومؤثرًا فيها .

فمن تأثره بها أنها كشفت عن معدنه الأصيل، وأبرزت لنا معالم شخصيته فى نصرة الحق وتفريق مجتمعات أرباب البدع، وشدّد على أهل الأهواء بالسجن والأدب على سبيل فى ذلك كله ، من اتّباع السنة واطّراح الهواء وخفض الجناح لأهل الخير، وملازمته للاقراء مع التعليم وعقد مجالس الحديث شرحًا وسماعًا [1] وأما أثره فى الأحداث، فقد استمر على عمله من الاجتهاد، ورغبته فى الجهاد حيث كان من بين المسلمين المجاهدين يوم وقعة « طريف» يشحز البصائر ويدمن الأبطال ، ويشير على الأمير أن يكثر من قول : « حسبنا الله ونعم الوكيل» وهو رابط الجأش مجتمع القوى غير هيّاب إلى أن استشهد فى تلك الموقعة[2].

(١) تاريخ قضاة الأندلس للنباهى ص ١٧٩ .
(٢) تاريخ قضاة الأندلس للنباهى ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .